

يسعون وهم يحملون إلى الملك والملكة ما يحتاجان إليه من طعام وشراب، ويهم أن يتكلم ولكنها تسبقه إلى الكلام، فتقول ضاحكة: «أنت أسيري منذ الآن يا مولاي، لن أفارقك حتى تفارقك علتك. إن غرفتك حرام عليك، ستنفق الليل في غرفتي، سأسلمك إلى النوم وديعة محفوظة، وسأستردك من النوم كما يسترد المودع وديعته، وسألزمك حتى تضرع إليّ في أن أريحك من نفسي ساعة أو بعض ساعة.» قالت ذلك وانحنت إليه فقبّلت بين عينيه والخدم ينظرون وينظمون المائدة، ولكن شهريار لم يقل شيئاً، ولو كشف لنا عن نفسه لما عرفنا أكان سعيداً أم كان شقيماً، فقد كان أحب شيء إليه أن يكون أسير شهرزاد، ولكنه كان يشفق أن تسلمه شهرزاد إلى النوم وأن تأمر النوم فيحتفظ به حتى يرده إليها وتفوته بذلك أحلام شهرزاد.

على أنه لم يكد يعود إلى طبيعته المألوفة التي رده إليها إقدامه على الطعام والشراب والحديث حتى نسي الليل وسهوده وهجوده ووطن نفسه مسروراً محبوراً، على أن ساعة مع شهرزاد خير من كل أيامه تلك التي كان يحياها منفرداً أو كالمنفرد، لا يلقي زوجه إلا بمقدار وعلى ميعاد، حسب ما تقتضيه ظروف الحياة للملوك الذين أثقلت قصورهم التقاليد التي تراكم بعضها فوق بعض على ممر الدهور واختلاف الأجيال، وما يمنعه وقد فتحت له شهرزاد هذا الباب الذي لم يكن ينتظر أن يفتح له، ما يمنعه أن يمارض ويتكلف العلة ويلقي إلى وزيره مقاليد الدولة يدبرها كما يشاء أو كما يستطيع، حتى يُبَلِّ هو من مرضه أو من تمارضه! ما يمنعه أن يتكلف العلة ليخلص لشهرزاد ما دامت هي تريد أن تخلص له! ولكن ما الذي حملها على أن تلقاه بهذا العطف الذي لم يتعوده، وبهذا الحنان الذي لم يألّفه! أتراها صادقة فيما تظهر من ذلك أم تراها متكلفة؟! وما الذي يدعوها إلى هذا التكلف، وهي تعلم حق العلم أنها مستأثرة بقلب الملك وعقله تأمرهما بما تشاء دون أن تخشى منهما امتناعاً عليها، وتنهاهما عما تشاء دون أن تخشى منهما خلافاً، وهي أكرم على نفسها وأرفع في نفسها من أن تتملق رجلاً أو تتلطف له مهما يكن؟! هي إذ لا تتكلف هذه العواطف، ولكنها مع ذلك لم تألف هذه العواطف ولم يألّفها منها شهريار! وإنما هي غامضة دائماً، مدلة دائماً، لا تدنيه إلا لتقصيه، ولا تلطف به إلا لتعنف عليه، أفترأها قد وصلت إلى دخيلة نفسه، ووقفت على جليلة أمره، وعرفت أنه مريض حقاً، وأشفقت عليه من هذا المرض؛ فهي تريد صادقة أن تبره وترفق به وتطب علتة حتى يبرأ.

كل ذلك ممكن وغير ذلك ممكن، سواء منه ما عرفه شهريار وما لم يعرفه، فقد استقر في نفسه أن صاحبه بحر لا يسبر غوره، وليل لا تنجلي ظلمه، ولغز لا تحل